



وما يربط بين هذين العاملين: أي ما يمكننا أن نستخدم على تسميته بـ الظرف الاستثنائي (أي المعامل الديني)- فإن هذا النوع من المجتمع هو ما يجوز لنا أن نسميه بالمجتمع التاريخي. الذي هو الصورة الحية للأمة.

و إذا كانت مجموعة المتتالية السالفة الذكر أي فرد + فرد + فرد... تقدم لنا صورة حية عن مجموع نفسيات تربط بينها علاقة الإضافة. و مجموعة عينات اجتماعية (أي قبائل) يربط بينها المعامل الاقتصادي. أي أن هذا النوع من المجموعة هذه يقدم لنا أنموذج المجتمع الذي تبني علاقاته الاجتماعية المادة الاقتصادية. و هو ما يمكننا أن نستخدم عليه بـ " المجتمع الطبيعي " أي الأمة الراكدة.

فأي من هذين النموذجين يقدمان الخصائص الكاملة و اللائقة بمفهوم الأمة. و بعبارة أوضح ما هي الآليات التي يتبناها كل من الأنموذجين للوصول إلى تجسيد معنى الأمة في الواقع العملي ، أو ما يعرف بواقع الناس الحياتي ؟

ذاك هو سؤال الإشكالية الرئيس الذي نحاول الإجابة عليه ، بعد أن نقوم بتذليل النوع الأول من المجتمع. و بالتالي نجيب على السؤال الفرعي، الذي يخصه وهو ما نقصد بالمجتمع التاريخي أي الأمة الحية. و هل أن هنالك أنموذج له أو لها ؟ و بعد أن نقوم أيضا بتذليل النوع الآخر من المجتمع. أي المجتمع الطبيعي. و هل أن هناك نموذج أو نماذج منه في الواقع الحياتي للناس؟

كما أننا نقوم بدراسة الآليات التي يتوفر عليها أنموذج المجتمع الذي تتشكل منه الأمة. و هل هو النموذج الأول؟ أم النموذج الثاني ؟ لنصل في آخر المطاف إلى تحليل خصائص الأمة. انطلاقا من أن الفرد يمكنه أن يتصف بخصائص الأمة

حتى أن القرآن الكريم قدم لنا نموذجا عنه فقال ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمُ كَانَ أُمَّةً قَانَتْ لَهُ حَنِيفًا...﴾ و لنبدأ بتذليل المفهومين.

### في مفهوم المجتمع ومفهوم الأمة

#### في مفهوم المجتمع

يقصد من معنى المجتمع مجموعة الأفراد التي تربط بينها أواصر اجتماعية قد تكون هذه الأخيرة أواصر طبيعية (بيولوجية نفسية ) أو قد تكون أواصر حاملة للصفات التي تنظمها ومن هنا فهي أواصر أخلاقية.

انطلاقا من هذا التعريف سوف نقوم بتحليل خصائصه ومميزاته حتى نأتي على البرهنة على أنموذج المجتمع الذي يمكننا تسميته بالمجتمع التاريخي<sup>١</sup> (مالك بن نبي ، 1974) و أنموذج المجتمع الذي يعرف بالمجتمع الطبيعي.

يرى علماء الاجتماع أن المجتمع هو مجموعة الأفراد التي يمكننا دراستها دراسة علمية بمعنى أننا نسقط عليها الدراسة الوصفية، باعتبارها دراسة هي الأخرى من الدراسات التي نعيها تقديرا كميا . هذه الدراسة الوصفية تقتضي ما تقتضيه " تشيئة " <sup>٢</sup> الظاهرة الاجتماعية حسب التعبير الدوركهايمي <sup>٣</sup> . و من هنا بات لزاما أن هذا النوع من الدراسات سوف يستكمل مسيرة الدراسات الاجتماعية المعاصرة القائمة على إخضاع كل شيء للدراسة المقدارية. وهي دراسة في صلب العلم المعاصر ذاك العلم الذي راح يكمل مسيرة دراسات العلوم الدقيقة بالعلوم الاجتماعية. ومتقنيا في ذلك ما نتج عن العملية مذهب الثورة الكوبرنيكية<sup>٤</sup> في مجال العلوم الدقيقة. و منذ العهد الكونتي<sup>٥</sup> الذي جعل فيه أوغيست كونت من معشوقته (الإنسانية): الإله الأعظم ! انطلاقا من الدراسات التي أقامها في

"الفلسفة الاجتماعية." ( وما كان له ذلك إلا لأن العالم الذي ولدت فيه مقدمة ابن خلدون تركها عصر "ما بعد الموحدين" حروفا ميتة).

إننا حين نستعين بعلم الاجتماع الحديث نجده يقدم تعريفات مختلفة للمجتمع فهو "جماعة من الناس يتعاونون لقضاء عدد من مصالحهم الكبرى. التي تشمل حفظ الذات ودوام النوع " و هو بذلك أكبر جماعة إنسانية: ولذلك يجب أن نميزه عن الجماعات غير المتمثلة و التجمعات الأخرى كالجمهور و المسافرين على سفينة و المشاهدين لمباراة كرة القدم... " حسب توماس إليوت Thomas. Eliote<sup>vi</sup> (عاطف غيث ، 1977)

أما بيزانس Biesanz فيرى أن المجتمع هو "تنظيم العلاقات الاجتماعية لجماعة من الناس يسهمون في ثقافة مشتركة ويتقاسمون الإحساس بالمشابه"<sup>vii</sup> (Biesanz,1954) و هو هنا يركز في تعريفه على التفاعل الاجتماعي بين الفرد والمجموع أو ما يقدمه المجموع لهذا الفرد .

أما أرنولد قرين Arnold Green فيرى أن "المجتمع هو أكبر جماعة ينتمي إليها الفرد . ويتكون المجتمع من السكان و التنظيم و الزمن و المكان والمصالح"<sup>viii</sup> (Green,A.1960).

و نلاحظ هنا أن التعريفين السالفي الذكر لا يكادان يختلفان إلا قليلا ، أو إلا من حيث أن بيزانس أقر صور عديدة للمجتمع ، من كون أن هذا الأخير لا يتم إلا من خلال فكرة التفاعل الاجتماعي. أما أرنولد قرين ففي رأيه فإن المجتمع هو جماعة ينتمي إليها الفرد ويتكون المجتمع من السكان و التنظيم و الزمن و المكان و المصالح ...

أما ماكيفروبيج Mac Iver and Page فيرى أن الكائنات الاجتماعية (الناس) تعبر عن طبيعتها بخلق ومعاودة خلق تنظيم يوجه و يهيمن على سلوكهم بطرق متعددة ...

لكن أهم تعريف ربما كان واقعيا هو التعريف الذي قدمه جونسون هاري حيث أن المجتمع هو جماعة تتغير من الخصائص التالية وهذه الخصائص هي: (الإقليم (الأرض) المحدد ، التكاثر عن طريق الجنس ، الثقافة الجامعة ، والاستقلال الاجتماعي)<sup>ix</sup> (Mac Iver, 1953). و من خلال هذه الخصائص - و فقط - فإن التعريف يكون كاملا أما غيره بالزيادة أو بالنقصان ، فإنه يكون تعريفا مثاليا أو غير ذلك.

غير أن أهم ما يبدوا للوهلة الأولى من هذه التعريفات أنها تعريفات خاصة بأنموذج اجتماعي ما. الشيء الذي لا يؤهلها لأن تكون خاصة أو محققة للعمومية في الزمان و في المكان. و هو الشيء الذي يجعل من التعريف الذي اعتمدناه في البداية على الأقل يفيد من ناحية بساطته، وبالتالي يفيد أيضا من ناحية حياده واستقلاله عن المواقف الفلسفية - على الأقل - من جهة. و من جهة أخرى ، يمكنه أن يتماشى مع ما اخترناه من عنوان من " المجتمع إلى الأمة ". بمعنى أن ما يبدوا واضحا لتعريف المجتمع قد يبدوا هو الآخر كذلك في تعريف الأمة. و بالتالي سوف نبتعد عن كل تعقيد الشيء الذي يمكننا من البرهنة - بالإثبات أو بالنفي - على أطروحتنا السالفة الذكر.

أما التعريفات النفسية و هي الأخرى عديدة للمجتمع فتري أنه مجموع السلوكات التي تميز بين أفراد المجتمع و مجموع هؤلاء الأفراد يبدون متماسكين

أكثر كلما كانت هذه العلاقات أمتن وهي الصورة التي يقدمها لنا القرآن الكريم حين يصف المؤمنين بقوله : " .. كأنهم بنيان مرصوص.. " <sup>x</sup> (سورة الصف الآية 4) أو هي الصورة التي يقدمها للوجود بلال بن رباح في بناء المسجد النبوي حين كان يحمل على كاهله عوض لبنة واحدة لبنتين. فحين نتأمل هاتين الصورتين نخلص إلى التحليل التالي:

أن نفسية المؤمنين في (الصف) جاءت جد معبرة عن مدى التماسك بين أفراد المجموعة . فحتى أن البنيان مرصوص إلى بعضه البعض بقوة توتر جد عالية. و إلا كيف نفسر استعمال الكلمة الأولى و التي هي " الصف " ثم من خلال هذه الكلمة يكون التشبيه التام لأنه لا يمكن لأي مرادف أن يعبر عن الصورة الحقيقية للنفسية التي كان عليها هؤلاء المؤمنون. أما عن الصورة التي بلغتنا من السيرة عن بناء المسجد النبوي فنلاحظ أن هذا النموذج والذي هو بلال بن رباح كأنما هو الآخر كانت به قوة العمل جد عالية إلى درجة أنه يتحمل مشاق جد عسيرة في عملية البناء مما يدل دلالة قاطعة على أن العمل الجماعي هذا كانت به الأعمال الفردية رفيعة الدرجة درجة التوتر الاجتماعي - نفسية . ومن هنا كأن النموذج الذي ضربناه مثلاً، لم يكن وحده بل هو صورة و " عيّنة " عن مسألة التوتر النفسي التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم، وهم يشيّدون أول مسجد في الإسلام. و هم كذلك ، كانت قوة العمل بهذا التوتر من عاملين جد مهمّين:

العامل الأول وهو عامل الإيمان بالفكرة القرآنية التي كانت تحت دائماً في هذا الموقف أو في غير هذا المواقف على العمل الجماعي. ( يلاحظ ذلك من خلال خطاب الله سبحانه و تعالى للقوم بصيغة دائماً يا أيها الذين آمنوا.. في الكثير من

المرات أو نقول في أغلب خطابات الموجهة المجتمع المدني. و هو المجتمع الذي كانت عوامل التوتر النفسي الاجتماعي قد بلغت منتهاها لدرجة أن النمو والتطور الحضاري كان جد سريع.

و العامل الثاني: " معامل القدوة " في العمل الجماعي هذا، والذي هو هنا الرسول محمد صلى الله عليه و سلم و الذي لم يكتف بالقيادة و أمر أصحابه بالعمل الجماعي هذا، وإنما راح يقيم البناء معهم أي بناء المسجد ويحمل اللبنة للبناء، الواحدة تلو الأخرى. و هو ابن الثالثة الخمسين. حتى أن سيدنا حمزة يحاول أن يريجه من تعب كان قد أنهكه على أيام هجرته إلا أنه يأبى و يستمر في عملية البناء. هذا المعامل كان جد مهم في حياة المسلمين لأن " الفاعلية <sup>xi</sup> (مالك بن نبي، 1979) تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأنشط الحركات وأقوم التوجيهات " <sup>xii</sup> (مالك بن نبي، 1974)

و أقوى الدوافع هنا دافع " اعمل لدناك كأنك تعيش أبدا و اعمل لأخرتك كأنك تموت غدا ". حتى أن كل صحابي كان من جهة يعتبر العمل الدنيوي هذا ، هو مسار للعمل الأخروي الذي تتحقق فيه ذاته في الجنة. ومن هنا راح كل منهم يتفانى في الدفع بالعمل الجماعي إلى أن يبلغ منتهاه ، سواء تعلق الأمر ببناء المسجد أو تعلق بمقاتلة العدو. و كلا الحالتين تحققان النتيجة نفسها. و من هنا لا نشك أن هؤلاء الرعيل الأول من الصحابة كانوا لا يفرقون بين عمليين عمل دنيوي وعمل أخروي لأن حياة المؤمن مكفولة بتحقيق الاثنين. و لن يتحقق الاثنان إلا بالاستماتة و بالتفاني في بلوغ الغاية الكبرى ، و التي لا سبيل لتحقيقها سوى العمل على أن يكون لهم أجر عظيم ( و الذي هو الجنة ).

إذا نستطيع أن نقول بأن العمل الجماعي هو وحده الذي يتحقق به الغاية.  
و الآن لنلقي نظرة على نوع و كيف العلاقات الاجتماعية التي تؤهل  
مجتمع ما لأن يلعب دوره في التاريخ. من خلال تحليل نفسي سوسيولوجي لما بين  
المجتمع التاريخي و المجتمع الطبيعي. و لنبدأ بالمجتمع الطبيعي.

### تحليل نفسي سوسيولوجي للمجتمع الطبيعي.

بداية ما لمقصود بالمجتمع الطبيعي ؟ نجيب باختصار و دون تعقيد فلسفي،  
أنه المجتمع الذي لم تعرف الحضارة إليه طريقا. أو هو المجتمع الذي خرج من  
الحضارة. و دون لف أو ودوران ما المقصود من الحضارة ؟ و باختصار نجيب  
" فليست الحضارة سوى تعلم الثقافة أعني استخدام جميع ملكاتنا الضميرية والعقلية  
في عالم الأشخاص.... " و من هنا بات لزاما أن نحلل " عالم الأشخاص "  
و المقصود منه تحليل لعالم العلاقات الاجتماعية.

كما سبق و أن أشرنا فإن المجتمع هو مجموع الأفراد. غير أن هؤلاء  
ترتبط بينهم مجموعة هائلة من الأواصر. و إن كل إخلال بهذه القاعدة يحيلنا إلى  
شكل آخر من ما يسمى " مجازا " بالمجتمع. أما علميا فإننا نطلق عليه بالزمرة  
(groupe) <sup>xiii</sup> (ماكيفر ، ر، م 1968)، و هي مجموعة أفراد تعيش لذاتها،  
ولا تجعل من أعمالها غاية ، أو لا تربط بين بعضها البعض إلا علاقات بيولوجية:  
أي علاقات طبيعية. و من ذلك فإن هذا التعريف هو ما قصدنا منه بتعريف  
المجتمع الطبيعي.

فالمجتمع الطبيعي يتشكل من مجموعة أفراد كما قلنا لا تربط بينهم علاقات اجتماعية ، و لا علاقات ثقافية ، و لا حتى علاقات نفسية.

فبخصوص الأولى: أي العلاقات الاجتماعية. فإننا حينما نقيم عليها تحليل نفسي اجتماعي. نجدها تنقسم بالتالي:

أولا أنها علاقات بيولوجية بالدرجة الأولى. بمعنى أن الأفراد هنا يحققون بأعمالهم المأكل و المشرب و المنكوح. فهم يعملون ربما ليل نهار. من أجل لقمة العيش ، هذا حفاظا على غريزة حب البقاء. فهم يعملون على تلبية حاجاتهم النفسية من أجل تلبية رغبة بيولوجية متمثلة في غريزة التناسل. و كل ذلك يكون على حساب غرائز أخرى ، لن تلييها هذه المجموعات من الأفراد. فإذا نظرنا في نوع العلاقات التي تربط بينها وجدناها كما قلنا علاقات بيولوجية و ربما تكون بذلك قد أكدت على جانب الحيوانية فيها. و بالتالي فالعلاقات الاجتماعية لديها علاقات مصلحة. أو لنقل علاقات مصلحة ، علاقات حاجة. و هي هنا تشبه إلى حد ما علاقات " القطيع " فهو يفترس ، يحارب ، و يقاتل ، من أجل حاجاته ، تلك التي ذكرنا. و لعل أهم صورة نجدها تتحقق لدى هذا النوع ، هي صورة من المجتمع الجاهلي قبل الإسلام ، فلقد حدثنا الأدب العربي أن قبيلتي داحس و الغبراء دارت بينهما حروبا استمرت لأكثر من أربعين سنة. كما أن قبيلتي الأوس و الخزرج كانت تتنازعان في من يثأر من دم الآخر. و السير النبوية تحدثنا عن أن القوم كانوا قوم جاهلية ، يأتون الفواحش ، و يأكلون مال اليتيم ، و يقطعون الأرحام ، و... إلى أن جاء القرآن الذي نص في آيات عديدة بل نهى عن كل المنكرات هذه و غيرها.

مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " <sup>xiv</sup> (حديث شريف رواه مسلم).

و هذه الصورة تدل دلالة قاطعة أن القوم باتت بينهم الأواصر الاجتماعية ممزقة بل و في أحسن الأحوال كانت أواصر هشة. هذا يدل دلالة قاطعة أيضا على أن العمل الجماعي الغائي فيها بات هو الآخر يكاد يكون مستحيلا. لأن المعامل الرئيس ، في العلاقات الاجتماعية هذه مفقود. و هو هنا عامل (المثل الأعلى): سواء تعلق الأمر بفكرة دينية - (ديانة سماوية أو ديانة أرضية) - لقد حدثنا التاريخ أن بلاد العرب كانت أرضا عذراء لم تتسرب إليه الديانات و الأفكار والإيديولوجيات إلا شذرا من الحنفية الإبراهيمية. و بالتالي فإن المجتمع هنا بات يعيش حالة المجتمع الطبيعي. و هذه الحالة هي حالة المجتمع الذي لم تعرف إليه الحضارة سبيلا.

لقد تتبعنا أهم ما ميزه على مستوى العلاقات الاجتماعية. أو على مستوى الفكرة. أي المعامل الرئيس. في تنشئة العلاقات الاجتماعية. و بعبارة جزائية بسيطة فلقد كان المجتمع آنذاك مجتمعا " مهلهلا ". لا فكرة تقوده ، و لا علاقات اجتماعية ، إلا ما كان محققا للمصلحة وللحاجة البيولوجية.

و عن هذا النوع مما اصطلاحنا على تسميته بالمجتمع الطبيعي. نجد الكثير من الأمثلة في التاريخ الحديث. و حتى في التاريخ القديم. ففي التاريخ الحديث هناك أمثلة عن هذا النموذج وجدناه فيما أطلق عليه الفكر الغربي بـ " المجتمعات البدائية": فقبائل كقبائل الإيسكيمو أو بعض القبائل الإفريقية ، لازالت فعلا تعيش حالة المجتمع المنغلق ، المجتمع الساكن ، المجتمع الراكد ، و بعبارة و جيزة

المجتمع الطبيعي. (تحضرني بالمناسبة فكرة من خلالها نأخذ صورة عن إحدى القبائل الإفريقية في أدغال إفريقيا قدمها الباحث الأنتوغرافي الفرنسي: كلود ليفي ستروس C, Levis-sraus الذي ومع " معاشته " لها خرج بالنتيجة التالية:

- أن اللغة عندا ألفاظها محدودة جدا.
- أن الاستجابة فيه هي استجابة غرائزية فقط
- العلاقات فيها بين أفرادا لا تتعداها حتى إلى القبائل الأخرى النظرية لها. مما يدل فعلا أن هذا النموذج من المجتمع بائت العلاقات الاجتماعية فيه هي الأخرى محدودة. و بالتالي فإنه يشكل نموذج المجتمع الطبيعي.

يمكننا أن نقدم نموذجا آخر من هذا المجتمع الطبيعي. لأننا قلنا في السابق بأنه يمكنه أن يجسد أنموذج المجتمع الذي خرج من الحضارة. إلا أن الفرق بين الأول و الثاني أن الأول رسمنا معالمه. أما الثاني فإن ما أطلقنا عليه بالمعامل الرئيس (الفكرة الدينية). المحرك للعلاقات الاجتماعية موجود، لكنه دون فعالية. مما ينعكس هو الآخر بظلاله على الحياة الاجتماعية، و التي تكون فيه بالتأكيد دون فعالية هي الأخرى. و هي صورة أخرى من صور المجتمع الذي نصطلح على تسميته بالمجتمع الراكد ، اللافعال.

و المثال على هذا النحو ما يمكننا أن نلمسه في التاريخ الحديث مما يطلق عليه سياسيا بالشعوب السائر في طريق النمو. ومنه البلاد العربية والعالم الإسلامي بالضبط. اليوم سوف نستعين في تذليل فكرتنا هذه ببعض الأمثلة من واقع الناس.

نلاحظ على مستوى المعامل الرئيس (و هو هنا الفكرة الدينية) لم تعد تحرك القوم لما أصاب القوم من وهن (حب الدنيا) فهم يعيشون الحياة الطبيعية. مأكـل

ملبس منسل .... و في أحسن الأحوال بعض المجتمع فيهم يعيش تناقضا بين العمر النفسي و الواقع الاجتماعي. حتى إننا نجد أن أجل صورة هنا نراها من ذلك المصلي الذي تتزلزل الجبال لخشوعه داخل المسجد وتتدى نفس الجبال لمنكراته السلوكية خارج المسجد. مما يجعل حياته تطبعها الثنائية في السلوك: سلوك مسجدي: أي حينما يكون داخل المسجد. و سلوك (دنيوي) خارج المسجد. و هذا الذي هو حاصل على المستوى السلوكي.

بينما على مستواه الفكري، فإننا نجده يلبس بالباطل الحكمة المشهورة "أدي الفرض و اخرج الأرض" على النحو التالي أدي الواجبات و الشعائر الدينية من جهة. و من جهة أخرى، افعّل كل ما حرم الله من منكرات في الحياة ! و ربما هذه الحكمة كانت لها دلالتها الحقيقية على أيام المجتمع المتحضر، والتي تعني في ما تعني بكل دقة: أدي الفرائض الدينية، و اخرج الأرض: بمعنى جاهد في سبيل الله. كان تكون مثلاً من نموذج سيدنا عقبة بن نافع الذي كان يقف بفروسه على ضفاف الأطلسي مشهراً سيفه قائلاً " والله يا رب لو علمت لك أرضاً وراء هذا البحر لفتحتها ". و بهذه الصورة النموذجية نحاول أن نتعرف على نوع آخر من المجتمع هو ما اصطّلحنا على تسميته بالمجتمع التاريخي لنحلل من خلاله الميكانيزمات التي تحركه من جهة. و من جهة أخرى، لننظر في الصور التي كان له أن يقدمها عبر التاريخ مقارنين هذه الصور من حين لآخر بصور المجتمع الذي اصطّلحنا على تسميته بالمجتمع الطبيعي من أجل إبراز قيمة هذا النموذج.

## المجتمع التاريخي.مجتمع الأمة

### من الفرد إلى الشخص: الإنسان محور المجتمع التاريخي

إن الإنسان يمكنه أن يتغير من فرد إلى شخص عندما يغير أولا: الجانب الذاتي فيه، من حالة " الطين " إلى حال " العقل ". حينئذ يمكنه أن يغير الواقع المحيط به، ثم أن عملية التغيير هذه تكون وفق شروط هي :

أولا: أن يقتنع الإنسان بالفكرة الموجهة لمنهجه في الحياة.

ثانيا: أن يُقنع الآخرين بهذه الفكرة.

وإذا قام الإنسان بهذا العمل الثنائي، فإنه يستطيع أن يكون مساهما إلى حد ما في صنع التاريخ. وبالتالي نستطيع أن نقول عنه أنه شخص مساهم في صنع الحضارة.

إن عمل التغيير الذي يُحوّل الإنسان من كونه فردا " INDIVIDU " إلى كونه شخصا " PERSONNE " يقتضي أيضا عدة شروط :

أولا: على الإنسان أن يتمكن من فهم نفسه<sup>xv</sup>، ومن فهم الواقع المحيط به: معنى هذا أن واجب القيام بأي فعل يقتضي العلم والمعرفة بهذا الشيء أو بذاك انطلاقا من أن الشيء هذا يتوفر على معرفته لذات الإنسان. وحتى لا ندور في حلقة مفرغة، نقول أنه متى تمت المعرفة على مستوى ذات الفرد كان لها انعكاساتها على المستوى الاجتماعي، ونعتقد أن هذا المعنى هو الذي كانت تشير إليه الآية الكريمة ﴿...ليظهره على الدين كله﴾<sup>xvi</sup> (سورة الصف الآية 9 )

ثانيا: أن يكون متفهما للفكرة التي توجهه في فهم ذاته وفي فهم ذاك الواقع الذي يحيط به. و دلالة هذا أن الفكرة التي يتمكن منها الإنسان بالفهم يجب أن تكون

مثله الأعلى ، حتى يركن إلى توجيهاتها الحياتية ، و أن يكون الإنسان متفهماً لهذه الفكرة معناه أن يستوعبها و تستوعبه ، فكلما تمكن الإنسان مثلاً من استيعاب الفكرة القرآنية في عالمنا الإسلامي كلما ضمن نسبة عالية من زرعه لهذه الفكرة والعكس صحيح. و من هنا وجدنا تحدي القرآن للرسول في هذا المعنى حينما قال له ﴿... سنقرئك فلا تنسى﴾ (سورة الأعلى، الآية 6). و على هذا فإن الموجه للرسول الكريم هو عينه الموجه للذين اقتنعوا بالفكرة القرآنية. و من هنا فعليهم أن لا ينسوا ، لأن كل نسيان هنا هو عدم امتلاك وسائل القدرة العلمية. وعليه فإن النسيان بهذه الحال إنما يجر إلى الستيتيكا أي الركون إلى السبات وعدم الحركة. الشيء الذي يمد ظلاله على عالم أشخاص هذا الإنسان بالطريقة التالية :

أن العلم و المعرفة على علاقة متينة بالجانب الشخصي في الإنسان وليس على علاقة بالجانب الفردي. لأن هذا الأول أي الشخص ، هو " الكائن المعقد الذي ينتج حضارة " (مالك بن نبي ، 1980). في حين أن الثاني: أي الفرد ، إنما هو الكائن الذي يعيش و الطبيعة شيء واحد.

أن العلم والمعرفة لها امتداداتها على مستوى نوع العلاقات الاجتماعية. فكلما كانت العلاقات الاجتماعية ذات بنية قوية ( و هي قوية بما تحوي من مادة علمية معرفية إلى جانب مادتها القيمية. أعني أن الشخص بهذه الحال هو أعرف من غيره بنوع العلاقات التي يقيمها مع غيره من أفراد المجتمع) - كلما كانت هذه العلاقات ظاربة في المجتمع الذي تعايشه . وكلما كان الفرد بل الشخص مدين بها للمجتمع الذي يعايشه. و العكس صحيح: أي كلما كان نوع العلاقات الاجتماعية

غير مقام على أسس علمية معرفية كلما كان المجتمع مدين للفرد بل للشخص فيه بنوع هذه العلاقات.

و حينئذ يمكننا أن نطلب من هذا الشخص أن يرتفع أولا وقبل كل شيء بعقله إلى مستوى ما . و ثانيا أن يسعى دوما في إنشائه لعلاقات اجتماعية تتوافق و هذا العقل و هذا الروح.

و بتعبير أدق على الإنسان أن يقوم على هذه البسيطة ، و لا سيما في العالم الإسلامي بالارتفاع إلى مستوى الحضارة. ولن يتأتى له ذلك إلا إذا ارتفع إلى مستوى من الفهم للأفكار القرآنية . كما أنه لن يتأتى له أيضا ذلك إلا إذا ارتفع إلى مستوى ما من العلاقات التي ينشئها القرآن الكريم في النفوس. و نعتقد أن ذلك هو ما كان يشير إليه الرسول (ص) حين استفناه صحابته عن المفلس فقال: "ليس المفلس من لا درهم ولا دينار له وإنما المفلس من جاء يوم القيامة وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا" أو كما قال ... وهو نفسه الذي ذهب إليه مالك بن نبي حين قال "لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من " أشياء " بل بمقدار ما فيه من أفكار" <sup>xvii</sup> (المرجع نفسه)

### التغيير وسيلة لوحدة المجتمع التاريخي (الأمة )

إن عمل التغيير سواء هنا أو هناك لا يمكنه أن يقوم ، أو أن يتم إلا إذا استجاب القوم لآية: "لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم". <sup>xviii</sup> (سورة التوبة الآية 10).

و هذا يفيد أن التغيير إنما هو على الذات الإنسانية أولا و قبل كل شيء. وفي هذه الذات يتم التغيير فيها على مستوى العقل أولا. و ثانيا على مستوى

الروح. و ثالثا على المستوى الجسماني: فبخصوص مسألة التغيير التي تتم على مستوى العقل نقول أن المعرفة والعلم بكل تفاصيل التصور الإسلامي واجبة شرعا. ومن هنا فإن الذي يقول " لا إله إلا الله دخل الجنة " و هذا يفيد أيضا أن العلم والمعرفة بقضيتين من خلال نص هذا الحديث ضرورة تدخل الجنة هاتين القضيتين هما المعرفة و العلم. و القصد إلى كل ما عدا الله فهو باطل. و هو الشيء نفسه الذي يطابق .. " هو ما وقر في القلب و صدقه العمل " طبعاً. و لا يكون موقرا في القلب إلى إذا كان معروفا و معلوما. ولذلك تجاهل المشركون من قريش هذا العلم وهذه المعرفة.

و الأمر الثاني - قلنا هو التغيير الذي يحدث على المستوى الروحي بحيث تصبح روح الإنسان تتجاوب و الطبيعة الثانية لها. وهذه الأخيرة إن هي إلا مملات الأوامر والنواهي الدينية. حتى أن الحديث الذي قال ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أصبح سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يرى به ويده التي يبطش بها و.. "إنما كان الغرض منه تربوي بالدرجة الأولى بمعنى أنه كان يودد ويرغب في القيام بالأعمال الصالحة. حتى تلك التي هي من النوافل أي من الزيادات في التكليف الذي كلف به الله عباده. و من هنا فإن كلما ليس هو تسبيحا لله هو من قبيل التسبيح لغير الله. و هو المعنى الذي كانت تؤكد عليه مطالع أكثر من سورة في: ﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض..﴾<sup>xix</sup> (سورة الحديد و سورة الممتحنة ، و سورة الصف الآيات الآيات الأولى،1).

و أما أمر التغيير الثالث فهو ذلك الذي يصيب الإنسان من جانه الجسماني كأن تصبح السمات التي تميز الشخص هذا عن غيره من السمات فعلا أمرا مميذا.

و نعتقد هي ذاك التعبير الذي جاء في وصف أصحاب رسول الله محمد (ص) ﴿...سيماهم في وجوههم من اثر السجود...﴾ " xx (سورة الفتح آية 29). ومن هنا فإن التغيير الداخلي لذات الإنسان قد فعل فعله، فترك بصماته على الجانب البراني للشخص.

وهو الأمر الذي سترك أيضا أثره على مستوى التغيير الاجتماعي.

بمعنى أن عمل التغيير من الناحية الاجتماعية مشروط:

أولاً: بالتغيير من الناحية الفردية. في هذه الحال على الإنسان إذا كانت لا توجهه مبادئ وأفكار مادية صرفة. أن يستجيب لدعاء الله له، وعندئذ فإن عمل التغيير الاجتماعي لا يتوافق إلا وما يمليه الله للقوم. لأنه وبتلك الكلمة التي ألقاها إلى هؤلاء القوم " فقط " يستطيعون أن يتألفوا.

و بتعبير آخر فإن التآلف والمحبة بين القوم لا تتم أو لا تقوم إلا إذا استجابوا لها: أي للفكر الموجهة لهم. " عندئذ " فقط إذا تحاب القوم توحدا وإذا توحدا أصبحوا قوة.

كيف يتوحدون ؟ الجواب هو إذا أصبحت أفكارهم ذات منطلق عقائدي واحد ، و سلوكهم الاجتماعي الأخلاقي واحد ، و أصبح ذوقهم للحياة و للكون واحد " جماليا " فأصبحوا أخوة متحابين. و نعتقد أن هذا هو ما كان يشير إليه الحديث الشريف: " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه البعض " xxi (حديث شريف)

و مالك بن نبي إذ يرى أن انتقال الإنسان من مجرد فرد إلى كونه شخصا، هو أولا و قبل كل شيء تغيير في المجال الثقافي إنما يهدف إلى التركيز على هذه

المسألة و هي مسألة التغيير الثقافي. و من هنا ففي رأيه لا يوجد شيء ذا أهمية كبرى من العمل الذي يتسنى للإنسان أن يقوم به كتمتين الأواصر و الروابط مع غيره من الأفراد. يقول في هذا المعنى: " إن العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاد، هو إقامة شبكة العلاقات الاجتماعية " <sup>xxii</sup> (مالك بن نبي ، 1980) طبعا حتى يتمكن الأفراد من ربط بعضهم البعض ، و حتى تكون بينهم صلات وروابط أخلاقية موحدة ، و إلا فماذا يعني تجمع أفراد بعضهم إلى بعض، - طبعا- ليس له أي معنى ، إذ لم تحدد هذه الروابط شروط أخلاقية تجمع بين الأفراد. ثم إن الجموع الغفيرة التي نراها تتجمع من أجل هدف ما، لا يكون لها أي اتصال في مجال العلاقات الاجتماعية أي لا يرتبط بعضها برابطة أخلاقية تبقى مجرد جموع. فهي إضافة فرد إلى فرد " 1 + 1 + 1 ... ؟ " ، بمعنى أن تجمع على أي كان لا يؤهل العلاقات الاجتماعية للارتباط فهو فاسد. وهكذا لاحظنا التعبير القرآني لما وصف أولئك الضالين عن الطريق المستقيم فأخرجهم لنا في معركة مع الإيمان فقال ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ <sup>xxiii</sup> (سورة القمر، الآية 45) فكلمة الجمع هنا تعبير صادق على أن القوم مجرد إضافات فردية لبعضها البعض، لا تجدي و لا تنفع ، إذ لم تكن البناءات اللازمة في المجال الثقافي هي الرابطة لهذه الجماعة كي تتحول إلى جماعة " جُمعة " .

ثم إن الاجتماع الإنساني على ضوء هذه العلاقات ذات الأطر الثقافية الخاصة، هي بالتالي التي تؤهل هذا المجتمع ، لأن ينتج فقط أفكاره و أشياءه. والملاحظ أن العمل الأول الذي قام به الرسول (ص) حين هاجر من مكة إلى المدينة - هو بناء المسجد ، و آخى بين المهاجرين و الأنصار. و الحقيقة أن هذا

العمل الأول دليل قاطع على أنه في المسجد يستطيع الفرد المسلم أن يتذكر ساعة ميلاده، حتى يحافظ على استمراريته النوعية من ناحية الكم و الكيف. بمعنى أن الإنسان في هذا الحال يمكن إلى حد ما أن يضمن شروط بقاءه " كشخص مسلم ". و أن العمل الثاني الذي هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. لم يكن ممكنا دونه، القيام بأي تجاوب بين الفكرة القرآنية وعالم الإنسان، ما لم يكن في إمكان كل أنصاري أن يتقاسم شروط الحياة مع أخيه المهاجر، هذا العمل الذي للأسف لازالت الأمة تفتقر إليه اليوم.

فعمل كهذا إذا حللناه من الناحية النفسية لاحظنا أنه أعطى الدفعة الحيوية للرجل المسلم فانطلق في التاريخ في شخص مثلا " عقبة بن نافع " الذي - كما قلنا - يقف بفروسه عند حدود المحيط الأطلسي، داعيا مولاة فيما معناه، " والله يا رب لو علمت لك أرضا وراء هذا البحر لفتحتها ". و لاحظنا على أنه هو الذي مكن تجاوب شهداء بدر يوم الواقعة مع آية ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾<sup>xxiv</sup>. (سورة البقرة الآية 247)

و هذا العمل هو الذي مكن عدو الإسلام و صديقه قديما وحديثا من أن يشهد له لا عليه في مجال التحرك السريع، الذي امتاز به عالم الإسلام، خاصة أيام بزوغ حضارته الأولى.

### الخلاصة:

إن المجتمع الطبيعي و المجتمع التاريخي حقائق يجب التعامل معها بكل روح علمية وبكل روح موضوعية. لأننا بالتحليل الدقيق و التحليل العلمي فقط نستطيع أن نشخص الداء و متى أقمنا هذا العمل بكل روح علمية أمكننا أن نأتي

على نتائج. و الحصول عليها إنما يكون تلقائيا. متى أقمنا منهجنا التحليلي العلمي على قاعدة إيجابية صرفة.

يجب أن نتوخى الحذر في تحليلنا للمجتمع الطبيعي كما يجب أن نتوخى الحذر في تحليلنا للمجتمع التاريخي. من أجل أن لا نخلط بين الاثنين من جهة. ومن جهة أخرى ، حتى نميز بين موضوعين مختلفين من ناحية الكيف إذ قد يكونان متكافئين من ناحية الكم. و لكن لنحذر في التحليل العلمي: فليس كل ما يتساوى هو متكافئ.

لقد أوصلنا التحليل العلمي إلى أن هناك نموذج المجتمع الطبيعي وهو المتميز بالاستاتييتيكا كما أنه يتميز بالركود واللافعالية. من جهة. ومن جهة أخرى، كون أنه مجتمع بيولوجي، فإن أهم ما يحركه مفقود ، أو هو في حالة خمود كما هو عليه كل من المجتمع الطبيعي ممثلا في تلك القبائل الإفريقية أو قبائل الإسكيمو أو كما هي عليه جل المجتمعات التي يطلق عليها - سياسيا- بالمجتمعات السائرة في طريق النمو و منها مجتمع العالم الإسلامي باعتباره مجتمعا من المجتمعات التي خرجت من الحضارة حسب تعبير بن نبي.

إن المجتمع الطبيعي ليست له من المؤهلات العلمية و المؤهلات المعرفية ولا حتى من المؤهلات " العلاقاتية " ما يمكنه من السير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحضارة الراقية: لأسباب وقفنا عليه تتعلق بـ:

افتقاده لجذوة الحركة الاجتماعية أو ما سميناه بالمعامل الرئيس في سير الحركة الاجتماعية وهو معامل البذرة الدينية.



مرصوص. ﴿ أو في قوله تعالى ﴿ محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار  
رحماء بينهم ترلاهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا .... ﴾ (سورة  
محمد، الآية 29).

إن أهم ما يميز المجتمع التاريخي (الأمة) الوحدة. و تتجلى هذه الوحدة في  
التالي:

- وحدة في التصور فكل المجتمع ينظر إلى الأمور سواء كانت سياسية أو  
ثقافية أو أخلاقية أو .. نظرة واحدة وموحدة.
- وحدة الترابط الاجتماعي فالكل (ليس القطيع) هذه المرة متماسك اجتماعيا ومن  
هنا يحقق قول المصطفى صلى الله عليه وسلم " مثل المؤمنين في توادهم  
وتعاطفهم و تراحمهم و ترابطهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو  
تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".
- وحدة الترابط الثقافي. و هنا أردنا أن نقول أن كل ما هو ثقافي. هو من إنتاج  
هذا النوع من المجتمع. حتى أن المنتج الحضاري هنا يميزه أي يميز هذا  
المجتمع عن غيره من المجتمعات. كأن نقول هذا ياباني أو هذا أمريكي أو  
هذا من صنع أوربي إلخ.. إن كل منتج حضاري هو ما يميز أمة عن  
غيرها من الأمم

هوامش البحث.

i ( اصطلاح المجتمع التاريخي هو بالتعريف المجتمع الذي ينتج حضارة والمجتمع الطبيعي هو بالتعريف المجتمع الراكذ. لأكثر تفاصيل أنظر مالك بن نبي ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الثانية ، دار الفكر دمشق 1974 ص 7-12

ii) تشيئة الظاهرة الاجتماعية: أي اعتبارها شيء يمكن دراسته كما ندرس الأشياء في العلوم الدقيقة كالفيزياء والكيمياء وغيرها.

iii) نسبة إلى دوركهايم (إميل) E.Durkheim عالم اجتماع فرنسي 1858-1917.

iv) نسبة إلى الثورة التي أقامها كل من كوبرنيك نيقولا البولوني 1473-1543 وغاليليو الإيطالي 1564-1642 في عالم الفلك.

v) نسبة إلى عالم الاجتماع الفرنسي أوغيس كونت.

vi) أنظر عاطف غيث، علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الطبعة الرابعة 1977 ص 192

vii ( المصدر نفسه ص 193 نقلا عن Biesanz & Biesanz. Modern society N.Y., 1954 P.85

viii) نفسه ص 195 نقلا عن Green, A, sociology, N.Y. 1960, P21

ix ( لتفاصيل أكثر أنظر المصدر السابق نفسه ص : 196، والتعريف نقله عن Mac Iver and Page, Society. London, 1953, P.5

x) سورة الصف الآية، 4

xi) (لتفاصيل أكثر أنظر مالك بن نبي ، تأملات ، فصل الفاعلية، دار الفكر دمشق، الطبعة الرابعة، 1979 ص. 119

xii ( لتفاصيل أكثر يراجع مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، فصل الثروة الاجتماعية ، الطبعة الثانية 1974 ص 34-38

(<sup>xiii</sup>) ماكيفر، ر،م، الجماعة دراسة في علم الاجتماع، يراجع فصل الجماعة والرابطة. ترجمة محمد علي أبو درة ولويس اسكندر ، دار الفكر العربي 1968. ص 45

(<sup>xiv</sup>) حديث شريف رواه مسلم.

(<sup>xv</sup>) " لقد قيل قديما" اعرف نفسك" وهي مقولة اعتمد عليها الفكر الأوربي ابتداء من عصر النهضة .

(<sup>xvi</sup>) ( سورة الصف آية 9 " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون".

(<sup>xvii</sup>) مالك بن نبي ميلاد مجتمع، ص 34.

(<sup>xviii</sup>) سورة التوبة، آية 10

(<sup>xix</sup>) مطالع كل من سورة الحديد وسورة الممتحنة وسورة الصف .وهي السور التي جاءت في صيغة الماضي المراد به كل أبعاد الزمن ومطلع سور الأعلى التي جاءت في صيغة الأمر ومطلع كل من سورتي الجمعة والتغابن اللتان جاءتا في صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرارية . إضافة إلى الكثير من الآيات التي تحت على التسبيح في القرآن الكريم .

(<sup>xx</sup>) ( سورة الفتح ، آية 29

(<sup>xxi</sup>) حديث شريف

(<sup>xxii</sup>) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ، ص 21

(<sup>xxiii</sup>) سورة القمر آية 45.

(<sup>xxiv</sup>) سورة البقرة ، آية 247